Comprehensive Journal of Science
Volume (10), Issue (38), (Dec, 2025)
ISSN: 3014-6266

مجلة العلوم الشاملة
المجلد (10) العدد 38 ديسمبر 2025
ردمد: 3014-6266

مجاهدة النفس عند الصوفية

مريم علي امحمد التريكي
قسم الفلسفة ـ كلية الآداب الجميل / جامعة صبراتة

Maryam.atraki@sabu.edu.ly

تاريخ الاستلام:2025/12/8 –تاريخ المراجعة: 2025/12/12– تاريخ القبول: 2025/12/19– تاريخ للنشر : 2025 /12/22

ملخص :

تُعد مجاهدة السالك لنفسه هي بداية الطريق الصوفي وأساس بنيانه ، إذ أن وصوله بالسلوك إلى الغاية والنهاية لا يتسنى له وهو مُثقل ببقية من أثار النفس ، فلا بد من إسقاط تلك الآثار ، وتوديع نفسه بالكلية حتى يكون بلا نفس .

فالمجاهدة هي أول البداية والسبيل إلى الهداية ، فهي بمثابة الوضوء للصلاة فمن لا وضوء له لا صلاة له .

المجاهَدة هي الجانب العملي في الحياة الصوفية، أو هي الجانب الديني والأخلاقي فيها، والتصوف في جوهره نظام ديني أخلاقي يأخذ به السالك نفسه في صراحة وعزم وتصميم، ولا يقوى عليه إلا أولو العزم والتصميم؛ لأنه موجهٌ ضد النفس ورغباتها والعالم ومباهجه. هو نظام محوره التضحية بالذات، وإيثار كل ما لله على كل ما للنفس، ومن هنا كان النظام الأخلاقي الصوفي نظامًا فريدًا في بابه، مختلفًا عن غيره من النظم الأخلاقية الأخرى؛ لأنه قائم على معاملة الله وحده، تلك المعاملة التي يوحي بها مبدأ التضحية.

والمعنى الذي يحرص الصوفية على إبرازه هو أنه ليس للعبد أن يعتقد أنه يكتسب بمجاهدته النجاة والهداية، أو ينظر إلى أفعال الطاعة باعتبارها أمورًا توجب على الله الإثابة عليها كما ذهب إليه المعتزلة، بل الواجب عليه أن ينظر إلى واهب الهداية المتفضل بها، وهو الله، وموقف الإنسان من ربه في هذا الصدد أشبه بموقف المملوك من سيده، فإن المملوك إذا أمره سيده بأمر أطاعه فكافأه سيده، لا يقال إن المكافأة جزاءٌ اكتسبه المملوك بطاعته، فإنه مكلفٌ بالطاعة على أية حال كافأه سديه أم لم يكافئه، بل يقال إن المكافأة هبةٌ وهبها السيد تفضلًا منها، وإن بدت في ظاهرها جزاءٌ على الطاعة لاقترانها بها.

Abstract:

The spiritual striving (mujāhadah) of the seeker against the self is considered the beginning of the Sufi path and the foundation of its entire structure. A seeker cannot reach the goal and ultimate realization of the spiritual path while still burdened with the remnants and traces of the ego; therefore, these traces must be cast off, and the self must be abandoned entirely so that the seeker may become free from the domination of the ego.

Thus, mujāhadah represents the very first step and the path toward guidance. It is comparable to ritual purification before prayer: just as there is no prayer without purification, there is no spiritual journey without mujāhadah.

Mujāhadah constitutes the practical dimension of Sufi life — or, in other words, its religious and ethical dimension. Sufism in its essence is a religious–moral system through which the seeker disciplines himself with sincerity, determination, and resolve. Only those endowed with strong will and firm determination are capable of following it, because it is directed against the

ego and its desires, as well as against attachment to the world and its pleasures. It is a system whose core is self-sacrifice and the preference of all that belongs to God over all that belongs to the self. For this reason, the Sufi ethical system is unique in its kind and distinct from other ethical systems, because it is founded upon exclusive devotion to God — a devotion inspired by the principle of sacrifice.

The meaning that the Sufis are keen to emphasize is that the servant should not imagine that through mujāhadah he "earns" salvation or guidance, nor should he regard acts of obedience as deeds that obligate God to reward him, as was claimed by the Muʿtazilites. Rather, he must look to the Giver of guidance, who bestows it out of pure grace — namely, God. In this respect, the human being's position before his Lord resembles that of a servant before his master: if the master commands the servant and the servant obeys, and the master then rewards him, it is not said that the servant has earned the reward by his obedience, for he is obliged to obey whether he is rewarded or not. Rather, the reward is a gift granted by the master out of generosity, even if it appears outwardly as a recompense associated with obedience.

مقدمة

في رحاب التصوف، تبرز 'مجاهدة النفس' كحجر زاوية وأساس متين لتربية الروح وتزكية القلب، فهي ليست مجرد مفهوم نظري، بل هي مسيرة عملية عميقة لبذل الجهد في حمل النفس على مخالفة أهوائها ورغباتها المذمومة، وإلزامها تطبيق أوامر الله ونواهيه. إنها الطريق الذي يسلكه المريد لترقية ذاته من أسفل سافلين إلى أعلى عليين، محوّلاً إياها من 'الأمارة بالسوء' إلى 'النفس اللوامة' ثم 'المطمئنة'، كما وصفها القرآن الكريم والسنة النبوية ، وفي هذا السياق، يمثل التصوف التطبيق العملي لتعاليم الدين، وغاية السالكين هي الوصول إلى مقام الإحسان وتطهير النفس، وتحقيق العبودية لله، مما يفتح أبواب الهداية والنور الإلهي، كما وعد الله تعالى في قوله: ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** ﴾ سورة العنكبوت (69) هذا البحث يسبر أغوار مفهوم مجاهدة النفس عند الصوفية، مبيناً تعريفها، ومراتبها، وأهميتها في تحقيق المقاصد الروحية للإنسان، وصولاً إلى تحقيق مرضاة الله .

إشكالية البحث

- لماذا لا يكون الإنسان سعيدًا رغم التقدم الحضاري وزيادة متطلبات الحياة؟
- ما هي الأسباب المحتملة في ابتعاد الإنسان عن الدين والأخلاق؟
- هل حاجة الإنسان إلى مجاهدة النفس وتهذيبها وتطهيرها تساهم في استقامتها؟

أسباب اختيار موضوع البحث

إن أسباب اختيار موضوع البحث تتعلق باعتناء الدين الإسلامي والفلاسفة والصوفية بالنفس الإنسانية وتهذيبها، وحاجة الأمة الماسة لذلك في العصر الحالي ، كما أن إصلاح النفس يؤدي إلى إصلاح الجسد والمعاملات والمعاد إلى جانب حاجة الإنسان الماسة في هذا العصر للتعرف على كيفية مجاهدة النفس وتهذيبها.

أهداف البحث

- التركيز على مجاهدة النفس وتهذيبها عند الفلاسفة والصوفية واتباع نهجهم.
- التأكيد على أن تهذيب النفس موضوع هام من متطلبات الحياة اليومية.
- يهدف إلى إصلاح الأخلاق الذميمة لتحقيق السعادة.
- عرض القضايا المتصلة بموضوع البحث بالاعتماد على الشخصيات الفلسفية والصوفية.
- إخراج المادة العلمية في مبحث يتسم بالتركيز على الأفكار المحددة والبعد عن المبالغة أو التهوين .

أما منهجية بحث تتطلب استقراء تراث الفلاسفة والصوفية، مع التركيز على استخدام المنهج التحليلي الوصفي المقارن .

هيكلية البحث :

أولا : طبيعة النفس

ثانيا :مراتب النفس

ثالثا : أهمية المجاهدة

رابعا : شروط المجاهدة

خامسا : مراتب المجاهدة

أولا : طبيعة النفس

للصوفية مفهوم خاص للنفس الإنسانية ـ لا يستند إلى المعاني اللغوية والفلسفية المتعددة للكلمة ـ وإنما يُستمد من الأصول الشرعية ـ القرآن والسنة ـ فقد استشهد الصوفية من القرآن الكريم بقوله تعالى ﴿ **إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ** ﴾ [1] وقوله تعالى ﴿ **وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ** ﴾[2].

ـ ﴿ **وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ** ﴾ [3]

ـ ﴿ **وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي** ﴾ [4]

ـ ﴿ **فَتُوبُواْ إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُواْ أَنفُسَكُمْ** ﴾ [5]

ومن الأحاديث النبوية استند الصوفية إلى أقواله ﷺ :

ـ " المؤمن بين خمس شدائد : مؤمن يحسده ، ومنافق يبغضه ، وكافر يقاتله ، وشيطان يضله ، ونفس تنازعه "[6] .

فبيَّن الرسول ﷺ أن النفس عدو منازع يجب عليك مجاهدتها .

ـ " مرحبًا بكم قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر ، قيل يا رسول الله وما الجهاد الأكبر ؟ قال : جهاد النفس"[7] .

ـ " المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله عز وجل "[8].

ـ " أعدى عدوك نفسك التي بين جنبيك ... نعوذ بالله من شرور أنفسنا "[9].

واستخلص الصوفية من هذا السند الإسلامي أن النفس أنما يُراد بها الطبيعة السيئة للنفس الأمارة التي طُبعت على الغفلة والشك والشرك والرغبة والرهبة والشهوة والغضب ، فهي مصدر كل الآفات وسبب الغفلة التي تقطع الطريق على العبد في طلب الحق .. فهي تركن إلى الشهوات وتفرح بالمطالب والراحات [10].

ومن ثم فواجب على المُريد السالك معرفة جبلات النفس وصفاتها المذمومة حتى يتمكن من التخلي عنها .. وقد ذكر أبو طالب المكي للنفس جبلات أربع هي[11] :

1–الضعف (وهو مقتضى فطرة التراب) لقوله تعالى ﴿ **وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ** ﴾[12]

فلزم عن هذا ضعفها ووهنها لقوله تعالى ﴿ **يُرِيدُ اللهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفا**﴾ [13]وقوله تعالى ﴿ **اللهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ** ﴾ [14]فارتد الضعف إذن إلى مقتضى طبيعتها .

2–البخل (مقتضى جبلة الطين) لقوله تعالى ﴿ **وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ** ﴾ [15] وقد لزم من بخلها الحرص والأنانية والشهوة وحب التملك مع أنها لا تملك من أمرها شيئًا .

3– الشهوة (مقتضى الحمإ المسنون) لقوله تعالى ﴿ **لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ**﴾[16].

4– الجهل لقوله تعالى ﴿ **إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً** ﴾[17].

وكان من نتيجة هذا كله أن ورثت النفس صفتين أساسيتين هما جمع هذه الجبلات : (الطيش والشره) فطيشها من جهلها ، وشرهها من العجلة فتولد من ذلك حرصها وطمعها وكان ذلك سبب خروج آدم من الجنة لذلك كان حب الدنيا رأس كل خطيئة .[18]

ومن طبيعة النفس أيضًا في تصور ابن عربي الوقوع في الأهواء وهذه آفة من الآفات القاطعة عن الوصول فيقول[19] : (إن النفس فرس جموح ملجم مهيأ للركوب فإن ركبتها وألقيت عنانها بيد العقل نجوت ، وإن ألقيت عنانها بيد الهوى هلكت فاختر لنفسك جعل عنانها مع العقل لتهتدي) كما يضيف ابن عربي طبيعة أخرى للنفس هي حب الرئاسة فيقول[20] : (إن أصل أمراضك من حب الرياسة والجاه ، إذ تتولد عنه آفات عظيمة وهي محبة التعظيم والثناء والمدح والاستعلاء على الخلق واستعبادهم).

فموطن الداء إذن كامن في النفس ، فتلك أوصافها وخصالها المذمومة وشهوتها المحمومة ، وخطر هذا كله لا يقف عند حد النفس بل يمتد إلى القلب ، لذلك يلزمه طهارة الباطن ليصفو المريد بقالبه وقلبه ، ولا يتأتى هذا كله إلا بمخالفة النفس لينعتق القلب من رقها وعبوديتها .

ثانيا : مراتب النفس

وللنفس الإنسانية عند الصوفية سبع مراتب : هي النفس الأمارة ، والنفس اللوامة ، والنفس الملهمة والنفس المطمئنة ، والنفس الراضية ، والنفس المرضية وأخيرًا النفس الكاملة ، وهذه المراتب ـ من حيث تعلقها بالبدن ـ تندرج تحت ثلاث مراتب[21] وهي :

1- **النفس الأمَّارة** : وهي التي تميل إلى البدن .. تأمر باللذات والشهوات .. وهي منبع الأخلاق الذميمة والأفعال السيئة ، وتجذب القلب إلى أسفل قال تعالى ﴿ **وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ** ﴾[22]

2-النفس اللَّوامة : وهي التي تنورت بنور القلب إلى حدِ ما فبدأت بإصلاح حالها وكلما صدر منها سيئة بحكم طبيعتها الظلمانية تداركها نور التنبيه الإلهي فأخذت تلوم نفسها وهي مترددة بين البدن والقلب ، وهي التي قال عنها سبحانه وتعالى ﴿ **وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ** ﴾[23].

3- النفس المطمئنة : وهي التي تم تنورها تمامًا بنور القلب فانخلعت عنها صفاتها الذميمة ، وتخلقت بالأخلاق الحميدة وهي متجهة إلى جهة القلب متحررة عن البدن بالكلية ، وهي النفس الراضية المرضية قال تعالى ﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً** ﴾[24] .

ويفرق الصوفية بين النفس والروح فإذا كانت النفس هي محل الأوصاف المذمومة ، فالروح هي نبع الأخلاق الحميدة[25]، كما يفرقون بينها وبين الصدر والقلب والفؤاد واللب[26]، ليتوصلوا من هذه المفارقات إلى ضرورة مجاهدة النفس والترقي بها إلى أعلى مراتب الكمال .

ثالثا : أهمية المجاهدة

يرى محي الدين بن عربي أن المجاهدة هي حمل النفس على المشاق البدنية ومخالفة الهوى على كل حال[27]، فهي إذن العمل بجد واجتهاد بإلزام النفس الطاعة ، وهو أمر شاق للغاية ، إذ أن النفس لما غلبت عليها الصفات البشرية المذمومة من ميل ظاهر إلى المعصية فهي تميل بالسالك إلى الشهوات ، وهو دائمًا يحاول أن يعرج بها إلى سماء الحقوق والواجبات مما هو مطلوب شرعًا والترقي إلى الأخلاق الكريمة .

ولقد قال الرسول ﷺ : " المجاهد من جاهد نفسه فمن مات على هواه فقد حيا عن الضلالة وبمعرفته عن الجهالة "[28] ، كما ذهب ابن عباس رضي الله عنه إلى : " أن الجهاد هو استفراغ الطاقة فيه وألا يخاف في الله لومة لائم "[29].

ومن أقوال المحاسبي في هذا الصدد : " من اجتهد في باطنه ورثّه الله حسن معاملة ظاهره ، ومن حسن معاملته في ظاهره مع جهد باطنه ورثه الله الهداية إليه "[30].

فالسالك العاكف على أبواب الحق تعالى يظل يطرق باب المجاهدات حتى يوفقه الله تعالى لسبل الدخول لحضرته ..إذ تتأكد ضرورة المجاهدة وأهمية المداومة عليها عند سالك الطريق الروحي من خلال الآية الكريمة ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ** ﴾[31]

قيل للجنيد : متى يصير داء النفس دواءها ؟ فقال : إذا خالفت النفس هواها[32] ، فالنعمة العظمى عند الصوفية هي الخروج من النفس ، لأن النفس أعظم حجاب بينك وبين الله عز وجل .

روي عن البسطامي في هذا الشأن أنه قال : " وقفت نفسي مع المصلين فلم أرى لي معهم قدمًا ، ووقف نفسي مع الصائمين فلم أرى لي معهم قدمًا ، فقلت : يارب كيف الوصول إليك ؟ فقال : أترك نفسك وتعالى[33].

رابعا : شروط المجاهدة النفسية

ولكي تتحقق الفائدة المرجوة من المجاهدة وجب تزكية النفس وتطهيرها مما ورثته من صفات وما لزم عنها من آفات ، ولا يكون ذلك إلا بإتباع عدة سُبُل لتصفيتها وحملها إلى مراتب الأمان وهي :

1- قطع مألوف العادة :

ترتاح النفس عادةً إلى بعض العادات التي تتملكها حتى يمسى صاحبها أسيرًا ذليلًا لها فيؤدي ذلك إلى فتور همته فتتوارد عليه الآفات .

ومن هنا وجب عليه طهارتها ليكون القلب طاهرًا ، لأن صفاء النفس مرهون بذلك من حيث هي محل الشهوة ، فلزم مجاهدتها وتأديبها[34].

ولا يكون ذلك إلا بفطمها مما اعتادت عليه[35] ، وما ركب فيها من جبلات ، وتبديل صفات العبودية بصفات الربوبية ، وأخلاق الشياطين بأخلاق المقربين .

وحينذاك يتحرر المريد السالك من عبادة العادة إلى عادة العبادة مصداقًا لقوله تعالى ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ{69} إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ**﴾[36]

2- تحمل المشقة والمخالفة :

جُبلت النفس على إتباع الهوى وحب الشهوات ..ولهذا حذّرت الآيات القرآنية من متابعة هوى النفس قال تعالى ﴿ **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطاً** ﴾[37] وقوله تعالى ﴿ **وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ [38]

ولا تتحقق المجاهدة إلا بالعبادة واستعداد المريد السالك لتحمل الشدائد التي تقتضيها المجاهدة ، يقول ابن عربي : " إن السفر مبني على المشقة ، والمِحن ، والبلايا وركوب الأخطار والأهوال العِظام "[39]، فإذا تحملها الصوفي السالك بصبر وتسليم يمكن أن يصل إلى المقامات الأرفع في الحياة الصوفية .

3- استقامة الهمة[40]:

وهي تتطلب المحاسبة والمراقبة حتى تبتعد النفس عن حظوظها وتتخلص من كل غاية غير الله تعالى ، فمن حاسب نفسه على اللحظات والخطرات ، خفت في القيامة حسراته[41] ، مصداقًا لقوله ﷺ : " حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا "[42] ، وبعد المحاسبة تأتي المراقبة وهي علم العبد بأن الله سبحانه وتعالى مطّلع عليه مراقب له في كل حركاته ، فحقيقة المراقبة هي : " أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك "[43].

فالمحاسبة إذن تقويم داخلي من المريد لنفسه ومجاهدة دائمة لتُخلص كل أعمالها لله مصداقًا لقوله تعالى ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ** ﴾[44]

4- قوة الروحانية :

والمقصود بها استعداد الروح للفضيلة ، إذ لو تحقق للمُريد السالك التخلّق بصفات الربوبية ـ على قدر الطاقة الإنسانية ـ يدخل ففي عِداد النفوس المطمئنة المرضية لقوله تعالى ﴿ **يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ**﴾[45]

خامسا : مراتب المجاهدة

إن القوى الإنسانية على ثلاث درجات أعلاها الروح وهي متجهة إلى العالم اللاحسي ، وأدناها النفس وهي متجهة إلى العالم الحسي وبينما القلب وهو صالح للاتجاهين الأعلى والأدنى ، وقبل أن يتم نوره يكون اتجاهه موزعاً بين القوتين العليا والدنيا وفي هذه الحالة تنجذب النفس إلى القلب ، وعلامة اتجاه النفس إلى القلب هي إحساسها بالسكينة والطمأنينة ، وقد عبّر السهروردي البغدادي عن هذا المعنى قائلاً : " إذا امتلأ القلب سكينة خلع على النفس خلع الطمأنينة لأن السكينة مزيد الإيمان ... وعند توجه القلب إلى محل الروح تتوجه جبلاته إلى محل القلب ، وفي ذلك طمأنينتها وإذا انزعجت من مقار جبلاتها ودواعي طبيعتها متطلعة إلى مقار الطمأنينة فهي لوامة ، لأنها إلى محلها التي كانت فيه أمارة بالسوء ، وإذا أقامت في محلها لا يغشاها نور العلم والمعرفة فهي على ظلمتها أمارة بالسوء، فالنفس والروح يتطاردان ، فتارة يملك القلب دواعي الروح وتارة يملكه دواعي النفس "[46].

والمجاهدة أو التطهير على ثلاث مراتب وهي :

1- تزكية النفس 2- تصفية القلب 3- تجلية الروح

أولاً : تزكية النفس

يرى السهروردي البغدادي أنه لابد لتزكية النفس من مقام اليقظة وهي انتباه النفس من غفلتها ، أو ما أسماه (الزاجر[47] في الباطن بقوله : " الزاجر في الباطن " وهو حال يهبه الله تعالى للسالك ، إذ بعد الإنزجار يجد العبد حال الانتباه[48] ، فأهمية حال الانتباه هو تنبيه النفس من غفلتها لطلب الخلاص من وحشة الأبدان وظلمة السكون إلى الأغيار[49] ، وحقيقة هذه المنزلة التولي والبُعد عن الخلق والتوجه إلى الحق وذلك بسلوك آداب السير واحتمال الطير وهنا يأتي السالك بأعمال إيجابية هي فعل الفضائل بإذابة النفس في طاعة الله ، فإذا اعتدلت صفة الهوى يظهر في النفس الحِياد والجود والسخاء ، وإن اعتدلت صفة الغضب يظهر فيها التواضع والحلم والقناعة ، أما إذا تعادلت هاتان الصفتان فيظهر في النفس التزكية ، فالتزكية تحصل باعتدال هاتين الصفتين .

ويرى الصوفية أن التزكية للنفس تؤدي إلى تجلية مرآة القلب وتصل بالسالك إلى مرتبة الكمال[50] مصداقاً لقوله تعالى ﴿ **قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا**﴾[51]

ثانياً : تصفية القلب

بعد أن تتم مرحلة التخلية أو تزكية النفس ينتقل المريد السالك إلى مرحلة التجلية وهي تصفية القلب .. فلا سبيل لكي يعود إلى قلب السالك جوهرة شفافة تتلقى المعرفة من الله وبالله إلا بتصفية القلب والتطهر ، يقول السهروردي : " للنفس منازل وللقلب مناهل استعداداً لتجلية الروح ، وكلما أنزلت النفس من المجاهدة منزلاً ورد القلب من المشاهدة منهلاً ، وكلما أخلت النفس بقعة ، كسى القلب نحلة وخلعة ، وكلما زُينت النفس بتهذيب شرف القلب بتقريب "[52] ، ويذهب الحكيم الترمذي ـ في كتابه الرياضة ـ نفس المذهب في قوله " وكلما منع الرائضون ـ أي المريدون السالكون طريق الرياضة والمجاهدة ـ أنفسهم شهوة أتاهم الله عز وجل على منعها نوراً في القلب ، فقوى القلب ، وضعفت النفس ، وحيا القلب بالله عز وجل ثناؤه ، وماتت النفس عن الشهوات حتى امتلأ القلب من الأنوار ، وخلت النفس من الشهوات فأشرق الصدق بتلك الأنوار "[53].

ويستند الصوفية في هذا المعنى إلى حديث الرسول ﷺ حاكياً عن رب العزة " من تقرب إلي شبراً تقربتُ إليه ذراعاً ومن تقرب إلي ذراعاً تقربتُ إليه باعاً ومن أتاني يمشي أتيته هرولة "[54].

وليس المقصود بالقلب ذلك العضو المعروف والمودع في الجانب الأيسر من صدر الإنسان ، وإنما هو اللطيفة الربانية الروحانية التي تُشكل حقيقة الإنسان كما يرى الغزالي " أن كل قلب صالح بالفطرة لمعرفة الحقائق لأنه أمر رباني شريف"[55].

والذي يجعل مرآة القلب تصدأ هو شهوات البدن ، أما إذا انجلت مرآة القلب لاحت فيها حقائق الدارين (الدنيا والآخرة) فتظهر الدنيا بقبحها وحقيقتها وماهيتها ، وتظهر الآخرة بنفائسها وغايتها يقول السهروردي : " إذا انجلت مرآة القلب تنكشف للبصيرة حقيقة الدارين ، وحاصل المنزلتين ، فيُحب العبد الباقي الآخرة ويزهد في الفاني الدنيا فتظهر فائدة التزكية "[56] .

ولكي تحصل المعرفة بالقلب لا بد من ثلاثة قواعد أساسية هي : (العلم والإخلاص والذكر) أو كما قال السهروردي : " العلم مع العمل ، والعمل مع الإخلاص ، والذكر مع الاعتقاد "[57] ففي هؤلاء الثلاثة تطهرها وجلائها .

ويستند الصوفية في هذا المصدر الإسلامي السني في قول الرسول ﷺ : (إن القلوب تصدأ كما يصدأ الحديد) قيل فما جلاؤها يا رسول الله ؟ قال : (ذكر الله وتلاوة القرآن كما لابد للقلب من البعد عن ثلاثة : الجهل والمعصية وترك الذكر)[58]لأنها أشياء تميت القلب مصداقاً لقول الرسولﷺ : (ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح بصلاحها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد بفسادها سائر الجسد ألا وهي القلب)[59] .

والقلوب على ثلاثة أنواع : قلب متعلق بالدنيا وقلب متعلق بالآخرة وقلب متعلق بالله وهو أفضل القلوب .. إنه القلب المطمئن بالإيمان إلى ما في الغيب دون شك استناداً للحديث القدسي (ما وسعني أرضي ولا سمائي ووسعني قلب عبدي المؤمن)[60].

ثالثاً : تجلية الروح

تمثل التجلية المرتبة الأخيرة من مراتب المجاهدة بعد التخلية والتحلية ، ويعني بها الصوفية [61] إشراق أنوار الحق على قلوب المقبلين عليه ، أي ما ينكشف من أنوار الغيوب فكل قلب ـ كما يرى ابن عربي ـ صالح الفطرة لمعرفة الحقائق لأنه أمر رباني شريف وهو محل الأمانة التي حمّلها الله له وهي (المعرفة والتوحيد)[62] .

فمن أراد أن يكون قلبه بيت الحق ـ على التنزيه ونفي التشبيه ـ فليعمد إليه ويميط عنه كل أذى من كبر وعجب وغيرهما من الأوصاف المذمومة ، فإذا أماط هذه الأوصاف غسله بماء الإخلاص والمراقبة وفرشه بالذل والافتقار وأسرج فيه سرج الأخلاق الإلهية السماوية حتى غمسه النور وأشرقت زواياه[63] .

وبعد أن استعرضنا محاولة إصلاح النفس وشروط وطرق المجاهدة ينبغي التنبيه إلى مداومة المريد السالك على المجاهدات وقد نبه عبد القادر الجيلاني إلى هذه النقطة فصاح في أهل الطريق قائلاً : (لا ترفعوا عصا المجاهدة عن نفوسكم .. فبدوام المجاهدات تنفتح عيناها وينطق لسانها ويزول خبلها وجهلها ، وهذا ما يجئ بمجاهدة ساعة بل يحتاج دوام ساعة بعد ساعة ويوم بعد يوم وسنة بعد سنة)[64]

هذا هو حال الصوفية الذين راضوا نفوسهم بالمكابدات والمجاهدات حتى أجابت نفوسهم إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الآداب .

خاتمة

أشرنا فيما مضى إلى أن للحياة الصوفية جانبَين مختلفَين مُتمايزَين ولكنهما متكاملان؛ الأول جانب المجاهدة أو تطهير النفس، والثاني جانب الكشف والإشراق، وقد يختص جانب المجاهدة باسم الزهد، وينفرد جانب الإشراق باسم التصوف بمعناه الأخص. غير أنه لا مُبرر لهذه التفرقة في الأسماء، فهما شقان لحياة واحدة؛ الشق الأول بمثابة المقدمات، والثاني بمثابة النتائج المترتبة على المقدِّمات. الأول الشجرة التي يتعهَّدها السالك إلى الله ويُغذيها بكل ما أوتي من غذاء روحي، والثاني بمثابة الثمرة التي يَجنيها السالك من هذه الشجرة .

النفس في نظر الصوفية إذن هي عدو الإنسان الأكبر الذي تجبُ مجاهدتَه ومحاربته والقضاء على كل مظاهره. هي الشيطان الذي يقود الإنسان إلى الكفر والمعصية. هي مصدر الشر والجهل؛ لأنها لا ترى الأشياء إلا خلال حاجاتها المادية، ولا تدع العقل يدرك حقيقة من الحقائق إلا بعد أن تصبغها بصبغتها، ولذا كانت مجاهدتها أمرًا يوجبه الشرع والعقل. يقول الله تعالى ﴿ **وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا** ﴾ [62]ويقول رسول الله ﷺ (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر)[63].

وهو جهاد النفس، ولذا أفاضَ الصوفية في كل العصور في الحديث عن النفس وآفاتها ورعوناتها، كما أفاضُوا في الكلام عن أساليب مقاومتها، وتكلَّموا عن المعاصي وكيف تبدأ، وعن الصفات النفسية الخسيسة وكيف تُمحى، وعن الأفعال الأخلاقية الذميمة وكيف تُتقى، ووضعُوا نظامًا أخلاقيًّا ضخمًا على أساس هذه النظرة المتشائمة إلى النفس.

وبالرغم من انتشار الفوضى والتناقضات في القرن الثالث، وتوجّه الكثير نحو السيطرة والسيادة، بقي أولئك الذين زهدوا عن هذه الماديات الدنيويّة، وتعمّقوا في أنفسهم فحاولوا تهذيبها وتطهيرها من آفاتها. عرفوا هفواتهم ، فروّضوا أنفسهم الأمّارة بالسوء وجنّبوها الملذات والشهوات، لينتقلوا إلى مراجعة ذاتهم ولومها على أخطائها، وبعدها يبدؤون بالتدرّج من مقام إلى مقام أعلى، ومن حال إلى حال أحسن، متسلّحين بالرضا والتوكّل على الله واليقين أنّ قربهم من خالقهم هو سبيل وصولهم الى الحقيقة المطلقة. فعندما يصلوا الى مقام النفس المطمئنّة، لا يبقى داخلهم شعور خوف أو توتّر من مصير مجهول، وهذا ما يفسّر فقدانهم للخوف من الموت وانتظاره فرحة إضافة الى ذلك، توضّحت أهميّة الشيخ والمرشد في هذا السياق، وكم يؤثّر في تطهير واستقامة تلك النفوس الضعيفة، فعرفوا بأطباء نفوس لدقة تحاليلهم وعمق توجيهاتهم. وهكذا يكون الصوفيّة قد نجحوا في السير نحو هدفهم وعملوا جاهدين على تحقيق غاية وجودهم، ولكن يبقى السؤال، وفي ظلّ عصر الحداثة وقرن التطورات والابتكارات، هل ستستطيع المجتمعات الزهد عن الماديات والسعي وراء معرفة سبب وجودهم في هذه الحياة؟

المراجع

1- سورة الرعد ، الآية (11) .

2- سورة يوسف ، الآية (53) .

3- سورة النساء ، الآية (79) .

4-سورة طه ، الآية (96) .

5-سورة البقرة ، الآية (54) .

6-الطوسي ، اللمع ، ص 436

7- رواه البيهقي في الزهد

8- رواه الترمذي وابن حنبل (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي) ، ج1 ، ص 389

9- أخرجه النسائي في الجمعة ، ص 24 / وابن ماجة في النكاح ، ص 19 / والدارمي في النكاح ، ص 20 .

10- الحكيم الترمذي ، أدب المريدين تحقيق : د/ عبد الفتاح بركة ، مطبعة السعادة ، د.ت / ص38

11- أبوطالب المكي ، قوت القلوب ، ج1 ، ص 85

12-سورة المؤمنون ، الآية (12) .

13-سورة النساء ، الآية (28) .

14-سورة الروم ، الآية (54) .

15-سورة السجدة ، الآية (3) .

16-سورة الحجر ، الآية (33) .

17-سورة الأحزاب ، الآية (72) .

18- أبو طالب المكي ، قوت القلوب ، مرجع سابق ، ص 86 .

19- بدر الحبشي ،كتاب الأنباء على طريق الله ، جمعه من كلام ابن عربي مخطوطة بدار الكتب المصرية ،تحت رقم 832 ، تصوف مكتبة طلعت ، ص 18 .

20- ابن عربي ، الفتوحات المكية ، ج1 ، ص66 .

21- التفتازاني ، ابن عطا الله السكندري وتصوفه ، ص 152 .

22–سورة يوسف ، الآية (53) .

23–سورة القيامة ، الآية (2) .

24–سورة الفجر ، الآية (27–30) .

25– القشيري ، الرسالة القشيرية ، ص 48

26– الحكيم الترمذي ، بيان الفرق بين الصدر والقلب والفؤاد واللب ، تحقيق د/ نقولا هير

27– ابن عربي اصطلاحات الصوفية ، ص 17 .

28– رواه الترمذي وابن حنبل ، (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي) مادة جهد ، ج1 ، ص 389 .

29– ابن القيم الجوزية ، زاد المعاد ، ج3 ، ص 8 .

30– المحاسبي ، الرعاية لحقوق الله ، دار الكتاب الحديث القاهرة ، ص 273 .

31–سورة العنكبوت ، الآية (69) .

32– الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج3 ، ص 64 .

33– عباس المسيري ، اليوجا والتصوف والرهبنة ، القاهرة 1983 م ، ص 77 .

34– أبو طالب المكي ، قوت القلوب ، مرجع سابق ، ص 86 .

35– الحكيم الترمذي ، أسرار ومجاهدة النفس ، دراسة وتحقيق إبراهيم محمد الجمل ، القاهرة 1984 م ، ص 63 .

36–سورة الفرقان ، الآية (70) .

37–سورة الكهف ، الآية (28) .

38–سورة ص ، الآية (26) .

39– ابن عربي ، رسالة الأنوار ضمن مجموعة الرسائل الإلهية القسم الأول ، ج1 ، 1367 هـ ص 63 .

40– ابن عربي ، المرجع السابق ، ص 13 .

41– عبد المنعم حنفي ،المعجم الصوفي ، مادة المحاسبة ، ص 221 .

42– أخرجه أبو نعيم في الحلية ، ج1 ، ص 52 ، عن سفيان بن جعفر بن بركة بن ثابت بن الحجاج عن عمر بن الخطاب .

43– ابن حجر ، فتح الباري بشرح صحيح البخاري ، ج1 ، ص 140 ،عن أبي هريرة ، ومصطفى بن عمارة ، جواهر البخاري وشرح القسطلاني ص 53–54 .

44–سورة الحشر ، الآية (18) .

45–سورة الفجر ، الآية (27) .

46– السهروردي ، عوارف المعارف ، ص 410 .

47– الزاجر: هو واعظ الحق في قلب المؤمن ، وهو النور المقذوف فيه ، الداعي إلى الله . (عبد المنعم حنفي ، المعجم الصوفي ، ص 115)

48– عوارف المعارف ، مرجع سابق ، ص 429 .

49– المسك المختوم ، ص 137

50– ابن عربي ، تحفة السفرة إلى حضرة البررة ، ص 54–55

51–سورة الشمس ، الآية (9) .

52– المسك المختوم ، مرجع سابق ، ص 138 .

53- أحمد عبد الرحيم السايح ،دراسات في التصوف والأخلاق ، دار الثقافة الدوحة ، 1411هـ ، ص 198 .

54- أخرجه الحاكم وابن النجار عن أي ذر محمد المدني ، الإتحافات السنية في الأحاديث القدسية ، ص 85 ، رقم الحديث (2410) ، كما أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس عن أبي هريرة .

55- الغزالي ، إحياء علوم الدين ، ج3 ، ص 12 .

56- السهروردي ، عوارف المعارف ، مرجع سابق ، ص 12 .

57- جذب القلوب إلى مواصلة المحبوب ، ص 8 .

58- رواه البخاري في صحيحه ، كتاب الإيمان ، ص 20 .

59- رواه مسلم في صحيحه ، ج3 ، ص 1219 .

60- رواه الشيباني ، تمييز الطيب من الخبيث ، ص 146 وذكر المصنف أنه ليس من الأحاديث الصحيحة واعتبره الإمام ابن تيمية من الإسرائيليات وإن كان الغزالي قد اعتمد عليه في إحياء علوم الدين .

61- عبد المنعم حنفي ، المعجم الصوفي ، ص 48 .

62- ابن عربي ، كتاب التجليات ضمن مجموعة رسائله الإلهية ، ج 2 ، ص 18 .

63- ابن عربي ، المواقع ، ص 160 .

64- يوسف زيدان ، الطريق الصوفي وفروع القادرية بمصر ، دار الجيل بيروت ، 1991م ، ص 71 .